الفصل الثالث

الشخصية والبحث الروحي

في السنوات الأخيرة من حياته، تعرض عبد المطلب، جد محمد ﷺ، إلى تقلص ثروته، وكان أبو طالب، الذي أصبح الآن الوصي على حفيده، يمر هو أيضاً بأوضاع مالية وظروف تجارية بالغة الصعوبة، لذا أخذ محمد ﷺ يعمل ليكسب قوت يومه في وقت مبكر وكان يحاول دائماً مساعدة أفراد أسرته.

الراهب بحيرة

عندما بلغ محمد ﷺ الثانية عشرة من العمر، قرر أبو طالب اصطحابه معه في قافلة تجارة متوجهة إلى بلاد الشام، وقد توقفا في بصرى، قرب صومعة ناسك نصراني اسمه بحيرة، ورد في الأثر أن الناسك بحيرة، مثله مثل ورقة بن نوفل والغالبية العظمى من النصارى واليهود والحنفاء في شبه الجزيرة، ينتظرون مجيء نبي جديد وكان يترقب دائماً علامات ذلك[1].

فعندما رأى بحيرة اقتراب القافلة، بدا له أن سحابة كانت تسير مع المجموعة تظللهم من حر الشمس، وقد أراد أن يعرف المزيد عن هذه الظاهرة، فقرر أن يدعو جميع أفراد القافلة إلى تناول الطعام، وهو أمر

غـير عادي لدى نسّاك تلك المنطقـة، وبعد مراقبة أفراد المجموعة بعناية، ثبـت نظرته على محمد الصغير، وذهب إليه وانتحى به جانباً وطرح عليه عدداً مـن الأسئلة عن وضعه العائلي ومركزه الاجتماعي وأحلامه، إلى ما هنالك.

ثم سأل إن كان بإمكانه إلقاء نظرة على ظهره، فوافق محمد ﷺ ورأى الراهـب بحيرة بين كتفي الصبي كتلة جلدية كانـت تسمى في كتبه «خاتم النبوة»[2] وسارع الراهـب إلى تحذير أبي طالب بأنه سيكون لهذا الصبي شأن مهم وأن عليه حمايته من المحن ومن الاعتداءات التي سيتعرض لها، شأنه في ذلك شأن رسل الله السابقين.

لقد رأينا أن السنوات الأولى من حياة محمد ﷺ كانت حافلة بالعديد من العلامات، فجميع الذين كانوا حوله كانوا يشعرون بأن هذا الطفل كان مختلفـاً وأنه سيكون له شأن عظيم، وقد أكد الراهب بحيرة هذا الانطباع وأضافه إلى تاريخ النبوة المقدس، وقد قيل للصبي وهو في الثانية عشرة من العمـر، وهو الذي كان محبوباً لدى الجميع، أن من حوله سوف يعارضونه؛ وفي حـين أنه كان يشعر أن تفرده جعل الناس يحبونه، إلا أنه أصبح يعرف الآن أن ذلك سيؤدي في المستقبل إلى كراهيتهم له.

ظل محمد ﷺ عدة سنوات يرعى الغنم في التلال المحيطة بمكة، ورغم صغـر سنه وبعده عن الحيـاة العامة نوعاً ما لسكان مكة من الحضر، فقد كان في بعض الأحيـان يسمع أو يشاهد المنازعـات والصراعات المتواصلة بين مختلف القبائل، الأمر الذي كان يؤدي إلى تحالفات متغيرة لا تتوقف، ففـي مكة، كانت الحرب بين العشائر هي القاعدة لا الشواذ، وكان البعض

يستغلـون ذلـك بأن يعاملـوا معاملة بعيدة عـن العدل والإنصـاف التجار والزوار الذين كانوا يعلمون أنه لم يكن لهم أي معاهدة أو اتفاقية تحميهم وليـس بإمكانهم الاعتمـاد على أي تحالف. هذا ما حـدث لتاجر زائر من اليمـن. فقد تعرض إلى الظلم، لكنـه قرر ألّا يجعل ذلك يمر دون أن يفعل شيئـاً ما. لذا فقد شـكا أمره صائحاً بأعلى صوتـه، محتكما لشرف قبيلة قريش ومنزلتها الرفيعة، لأن ينصفوه[3].

حلف الفضول

عـزم عبد الله بن جدعـان، شيخ قبيلـة تيم وأحد أعضـاء حلفي مكة الكبيرين وأهل المطيبين، على أن يدعو إلى بيته أولئك الذين كانوا يريدون أن يضعـوا حـداً للصراعات ويقيموا تحالف شـرف وعدالة يربط القبائل بحيـث يتجـاوزون التحالفـات التي تقوم علـى أساس المصالـح القبلية أو السياسية أو التجارية.

وقد تعاقد وتعاهد رؤساء وأفراد العديد من القبائل على ألّا يجدوا بمكة مظلومـاً من أهل مكـة وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانـوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، كان هذا الحلف الذي سمته قريشـ «حلـف الفضول» ذا سمـة خاصة من حيث إنه وضـع احترام مبدأ العدل ونصرة المظلوم فـوق كل اعتبار من اعتبارات القرابة أو القوة. وقد شـارك محمد ﷺ الشـاب، وكذا أبو بكر رضي الله عنه، الـذي أصبح لاحقاً صديق عمره، في هذا الاجتماع التاريخي.

بعد مدة من بداية الوحي، كان محمد ﷺ يذكر شروط الحلف ويقول: «لقـد شهـدت في دار عبـد الله بـن جدعان حلفـاً ما أحـب أن لي به حمر

النعـم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[4]. فالنبي لم يؤكد على علو شأن شروط الحلف المختلـف عن التحالفات القبلية الفاسدة التي كانت سائدة في ذلـك الزمن، بـل أضاف بأنه رغم كونه يحمل رسالـة الإسلام ـ وحتى كمسلـم ـ فإنه كان لا يـزال يقبل جوهره ولا يـتردد في المشاركة فيه. هذا القـول له مغزى خاص بالنسبة للمسلمين، ويمكن استخلاص ثلاثة دروس منه، لقد رأينا أنه كان قد طلب من النبي ﷺ الاستفادة من ماضيه، لكن التفكير هنا يتجاوز ذلك، محمد ﷺ يعترف بحلف أقيم قبل بداية الوحي وتعهـد بالدفاع عـن العدالة بقـوة ومعارضة الظلم الـذي يلحق بالمعوزين والعاجزيـن، وهذا اعتراف بأن عملية وضع هـذه المبادئ سابقة للإسلام وتتجـاوزه، لأن الإسلام ورسالته جاءا في واقع الأمر لتأكيد جوهر معاهدة سبق للضمير الإنساني صياغتها بمعزل عن الدين، هنا يعترف النبي ﷺ بوضوح بصلاحية مبدأ للعدالة والدفاع عن المضطهدين ثم النص عليه في حلف يعود إلى فترة ما قبل الإسلام.

والدرس الثـاني لا يقـل أهمية: ففي وقـت كانت فيـه الرسالة لا تزال تتكامل خلال مجرى الوحي وتجارب النبي ﷺ فإنه قد اعترف بصلاحية حلف أقامه أناس غير مسلمين ينشدون العدالة والصالح العام لمجتمعهم، إن قـول النبي ﷺ هو بحد ذاته إنكار صريح للمنحى الفكري الذي يجري التعبير عنه هنا وهناك في تاريخ الفكر الإسلامي ـ ولغاية اليوم ـ والذي لا يمكـن بموجبه لعهد أن يكـون صالحاً من الناحية الأخلاقية إلا إذا كان ذا طبيعة إسلامية صرفة أو إذا قام بين المسلمين. وأكرر مرة ثانية أن النقطة الأساسيـة هي أن النبي ﷺ يعترف بوضـوح بصلاحية الالتزام، بمبادئ

العدالة والدفاع عن المضطهدين، بصرف النظر عما إذا كان مصدر تلك المبادئ من داخل الإسلام أو من خارجه.

الدرس الثالث هو نتيجة مباشرة لهذا التفكير: إن رسالة الإسلام ليست -بأي حال- نظاماً مغلقاً للقيم، يختلف أو يتعارض مع الأنظمة الأخرى للقيم، فمنذ البداية، لم يكن النبي ﷺ يتصور أن محتوى رسالته هو تعبير عن الموقف الصرف من الآخر مقابل ما كان يصدر عن العرب أو المجتمعات الأخرى في زمنه، فالإسلام لا يقيم عالماً مغلقاً للمرجعية بل يعتمد على مجموعة من المبادئ الشمولية التي يمكن أن تتطابق مع أسس وقيم معتقدات أخرى وتقاليد دينية (حتى تلك الناتجة عن مجتمع يؤمن بتعدد الآلهة مثل مجتمع مكة في ذلك الوقت). الإسلام هو رسالة عدالة يترتب عليها مقاومة الاضطهاد وحماية كرامة المضطهدين والفقراء، ويتعين على المسلمين الاعتراف بالقيمة الأخلاقية لقانون أو عقد ينص على ذلك الشرط، بصرف النظر عن الذين يضعونه وعن المجتمع الصادر عنه، أكان مسلماً أو غير مسلم، وبدلاً من إنشاء الولاء لإسلام يكون فيه الاعتراف والولاء محصوراً في مجتمع الدين، فقد سعى النبي ﷺ إلى تطوير ضمير المؤمن عبر الالتزام بمبادئ تتجاوز التحالفات المغلقة باسم ولاء أولي للمبادئ الشمولية ذاتها، هذا الدرس الثالث لا ينطوي على أي شيء جديد للتأكيد على مبادئ الكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة: بل إنه يستدعيها ويؤكد عليها. وفيما يتعلق بالقيم الأخلاقية، هذا الموقف ذاته يظهر حين يتحدث النبي ﷺ عن صفات الأفراد قبل الإسلام وفي كنف الإسلام: «خياركم (فيما يخص صفاتهم البشرية والأخلاقية) في

الجاهلية خياركم في الإسلام؛ إذا فقهوا»[5]. إن القيمة الأخلاقية للإنسان تتجاوز كثيراً الانتماء إلى عالم خاص من المرجعية. وهي في الإسلام تقتضي المزيد من المعرفة والفهم كيما تدرك بشكل صحيح ما يؤكده الإسلام (مبدأ العدالة) وما يطالب بوجوب إصلاحه (جميع أشكال عبادة الأوثان).

«الأمين» والزواج

تبين حياة النبي ﷺ ذاتها، قبل بداية الوحي وبعده، ما يمت به التحليل آنف الذكر من صلة بالموضوع: إدراك بأن صفاته الأخلاقية سبقت بعثته النبوية، الأمر الذي أكد استدلالياً على الحاجة لتلك الصفات، فبعد أن كان محمد ﷺ الشاب راعياً، أصبح تاجراً وبنى لنفسه سمعة بالأمانة والبراعة اعترف بها جميع أهل المنطقة، فقد أخذ الناس يطلقون عليه اسم «الصادق الأمين»، عندما كان لا يتجاوز سن العشرين، وكان من بين أغنى التجار في مكة امرأة اسمها خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ كانت قد تزوجت مرتين، ثم أصبحت أرملة، وهي ابنة عم ورقة بن نوفل النصراني، كانت قد سمعت منذ عدة سنوات عن شاب «صادق ومنصف وبارع» فقررت اختباره فطلبت منه حمل بعض بضائعها إلى بلاد الشام ليبيعها هناك، وأرسلت معه خادماً شاباً يعمل لديها اسمه ميسرة، ووعدت بمضاعفة عمولته إذا نجح، فقبل وانطلق مع ميسرة. في بلاد الشام أبرم محمد ﷺ صفقة فاقت ضعفي ما كانت خديجة تتوقعه.

وعادا لينبأ خديجة ـ رضي الله عنها ـ، التي أصغت بصمت إلى ما رواه لها محمد ﷺ وكانت تراقب ملياً مظهر وسلوك الشاب الذي كان

في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، كان ينبعث من وجهه نور على ما يبدو. ثم أخبرها ميسرة أنه كان يلاحظ طيلة الرحلة سلسلة من العلامات في تصرفات محمد ﷺ وسلوكه ـ مما يدل على أنه لم يكن كغيره من الرجال[6]. ثم طلبت خديجة ـ رضي الله عنها ـ من إحدى صديقاتها نفيسة أن تسأل محمداً ﷺ إن كان يرغب في الزواج. فقال محمد ﷺ لنفيسة أن ما بيده ما يتزوج به، وعندما ذكرت اسم خديجة ـ رضي الله عنها ـ التي سيجد عندها «الجمال والنسب والشرف والمال». أجاب بالقبول لكنه بسبب وضعه لا يسعه تصور هذا الزواج. ولم تقل له نفيسة بأنها كانت تتصرف بناء على طلب خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقالت له أن يترك الأمر لها وأن بوسعها تدبير هذا الزواج. وأخبرت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بما كان يدور في ذهن محمد ﷺ. فدعته خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى بيتها وعرضت عليه الزواج، فقبل. بقيت مسألة التحدث إلى الأقارب في العشيرتين من أجل إتمام الترتيبات، لكن لم يكن يوجد أي عقبة ـ سواء من حيث مركز كل منهما أو من حيث مصالح القبيلتين ـ يمكن أن تحول دون زواجهما.

جاء في الأثر أن خديجة ـ رضي الله عنها ـ كانت في الأربعين من العمر عند زواجهما لكن ثمة من يقول بأنها كانت أصغر من ذلك: على سبيل المثال، يذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأن عمرها كان ثمانية وعشرين عاماً، وهو الأكثر احتمالاً على ما يبدو بالنظر لأن خديجة أنجبت ستة أطفال في السنوات التالية[7]. وقد عاش بكرها، وهو غلام سمي «قاسم»، سنتين فقط. ثم ولدت زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وأخيراً عبد الله، الذي توفي أيضاً قبل بلوغ السنتين من العمر[8]. في هذه

الأثنـاء قرر محمد ﷺ تحرير وتبني مولاه زيد بن حارثة الذي أهدته له زوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ قبل بضع سنوات.

وبعـد وفاة ابنه عبـد الله سعى لمساعدة عمه أبي طالب ـ الذي كان يعـاني من صعوبـات مالية كبيرة ويحمل عبء أسـرة كبيرة جداً ـ بأن يأخـذ ابن عمـه علي بن أبي طالـب إلى بيته. وسـوف يتزوج علي رضي الله عنه لاحقاً فاطمة، صغرى بنات محمد ﷺ.

زيد

إن لقصـة زيـد رضي الله عنه، الابن المتبنـى، أهمية لعدة أسبـاب، فقد أسر في معركة وبيع عدة مرات قبل أن يصبح مولى لخديجة ـ رضي الله عنها ـ ثم مولى لمحمد ﷺ. وقد بقي في خدمة محمد ﷺ عدة سنوات، عرف خلالها أن أبويـه كانا لا يزالان علـى قيد الحياة، حيث كان الناس يتناقلون الأنباء من قبيلة إلى أخرى من خلال الأشعار التي كان ينقلها التجار والمسافرون في تنقلهـم مـن قرية إلى قرية، فقام زيد رضي الله عنه بنظـم بعض الأشعار وعمل على أن يسمعها عدة أفراد من قبيلته الذين كانوا يأتون إلى مكة ويوصلوها لأسرتـه، لدى سماع والـده أنه كان في مكة قرر هو وعمـه التوجه إلى مكة علـى الفور بغيـة العثور على زيـد رضي الله عنه والعودة بـه إلى قبيلتـه. فسمعا أنه لـدى محمد ﷺ فجـاءا إليه وعرضـا شراءه. فاقترح محمـد ﷺ بدوره أن يـتركا الأمـر لزيد رضي الله عنه ليختار بنفسه: فإذا قـرر العودة مع أبيه وعمه، فـإن محمد ﷺ سيخلـي سبيله دون أن يطلب أي تعويض، وإذا كان الأمر علـى العكس من ذلك وأراد زيداً رضي الله عنه البقاء مع سيده، فإن على أهله قبول قـراره، تم الاتفاق وذهبوا معاً. ليسألـوا زَيْداً رضي الله عنه عن رغبته، فقرر البقاء

obeikandl.com

مع سيده وأوضح لأهله بأنه يفضل الرق لدى محمد ﷺ على الحرية بعيداً عنه، تلك كانت الصفات التي وجدها فيه بحيث إنها فاقت ما يمكن أن يتوقعه لدى الآخرين، لذا فقد بقي مع سيده، الذي قام على الفور بعتقه وأعلن على الملأ أن زيداً رضي الله عنه يُعَد منذ ذلك الوقت ابناً له، وأنه سيدعى زيد بن محمد وأنه سيرثه[9].

هذه القصة ـ اختيار زيد رضي الله عنه، حين كان لا يزال عبداً لسيده وتفضيله على أبيه ـ يضيف بعداً آخر إلى صورة محمد ﷺ التي كانت تظهر بالتدريج، وتبين الشيء الكثير عن شخصية محمد ﷺ قبل الوحي. فهي شخصية بسيطة، مولعة بالتأمل، دمثة، وصادقة أيضاً بارعة في التجارة، وتظهر احتراماً دائماً نحو جميع النساء والرجال والأطفال، وهم بدورهم كانوا يظهرون له الامتنان والمحبة الشديدة، كان الصادق وعند كلمته. كان الأمين والشخص الذي يعتمد عليه والمحفوف بالوقار، وكانت تحيط به العلامات التي تفصح عن شأنه، كان يتمتع بصفات إنسانية خارقة تشير إلى تفرده.

إعادة بناء الكعبة

ثمة حدث آخر يدل على أنه علاوة على مزاياه القلبية وتميزه الأخلاقي يجب إضافة صفة الذكاء الحاد، الذي كان يستخدمه في خدمة إشاعة الاحترام والسلام بين الناس وبين العشائر، بعد ممانعة طويلة الأمد من جانب قريش بسبب الحظر على المس بالبيت الحرام. قررت قريش أخيراً إعادة بناء الكعبة، فقاموا بهدم الجزء العلوي من الجدران، حتى بلغوا الأساسات (التي كانت تعود إلى أول بناء قام به إبراهيم وإسماعيل، والتي

تركوهـا دون أن يسموهـا). قامـوا بإعادة البنـاء إلى أن وصلوا إلى المكان الذي يجب وضع الحجر الأسود فيه، في إحدى زوايا الكعبة، عند ذلك ثارت الشجـارات بـين أفراد العشائـر المختلفة حول من سيكون لـه شرف إعادة الحجر الأسـود إلى مكانـه، وكانـوا على وشـك اللجوء إلى السـلاح لتقرير أي عشـيرة سيكون لها الشرف في ذلك. واقـترح رجل مسن من بينهم بأن يطلب إلى أول رجل يدخل البيت الحرام أن يفصل في القضية، وتم التوافق علـى تلك الفكرة، كان محمـد ﷺ أول الداخلين البيت الحرام وشعر كبار العشائر بالسعادة لاختيار الصدفة له للبت في النزاع، فأصغى إليهم ثم طلب عباءة ووضـع الحجر الأسود عليها وطلب من رؤسـاء كل عشيرة الإمساك بأطـراف العبـاءة ورفع الحجر معـاً. وعندما رفعـوه إلى الارتفاع المطلوب قام هـو ذاته بوضع الحجر الأسود في المكان المطلـوب ـ الأمر الذي أرضى الجميـع، لأنه لم يظلم أي منهم. هذا الذكاء والحدس استطاع التوفيق بين كبرياء كل عشيرة وحاجتها للاتحاد، ولقد تجلت هذه السمة المميزة لعقله، لاحقاً، أثناء بعثته، في مقدرته على المحافظة على وحدة المجتمع الإسلامي الأول رغم وجود شخصيات بالغة القوة وذات أمزجة مختلفة إلى حد بعيد، ففـي سعيـه وراء السـلام، كان دائماً يسعى إلى أن يحقـق ثانية ما كان قد فعلـه في هذا الوضع الصعب بين عشائر قريش: تعليم القلب عدم الخضوع للعواطف المتكبرة والتفكير المتغطرس، وإيصال العقل إلى حلول يرتاح إليها القلـب مما يمكن من ضبط النفس بلطف وحكمـة، ففي السنوات السابقة للوحـي كان رب الرسول ﷺ قد أنعم عليه بهذه الصفة الخاصة أي الجمع بين قلـب كبير وروح نفاذة، بين معرفة كيفية تحقيق ما هو معقول في جميع الظروف، مع الذات ولدى الناس الآخرين.

وعندما بلغ محمد ﷺ سن الخامسة والثلاثين، كان قد بنى لنفسه سمعة بحيث أن الكثيرين من بني هاشم كانوا يعتقدون بأن رداء أجداده سيؤول إليه ويعيد العظمة إلى عشيرته بأن يصبح زعيمها، فاستناداً إلى زواجه وأنشطته وصفاته الشخصية أصبح ذا مكانة بارزة سياسياً ومالياً، وأصبح يتلقى طلبات الكثيرين للزواج من بناته، كما حدث مع عمه أبي لهب الذي رغب بأن يزوج ولديه، عتبة وعتيبة، من رقية وأم كلثوم، وهكذا فقد جرت حياكة صلات عشائرية توقعاً للمزايا التي من شأنها أن تعود عليهم إذا ما أصبح محمد ﷺ زعيماً للعشيرة.

طلب الحقيقة

غير أن محمداً لم يكن ليهتم بتلك الأمور ولم يكن يهتم بالشؤون العامة، في هذا الوقت أخذ يقضي فترات من الاعتكاف في أحد كهوف مكة، مثلما كان يعمل حنفاء ونصارى مكة، وعند مجيء شهر رمضان، كان يذهب إلى غار حراء ومعه بعض المؤن ويظل في عزلة ويعود من حين لآخر من أجل التزود بالمزيد من الطعام، مدة تقارب الشهر، للوصول إلى ذلك الغار، كان عليه أن يتسلق جبلاً صغيراً ويذهب إلى الجانب الآخر من ذروة صغيرة أخرى ويتبع ممراً ضيقاً، وكان الغار ذاته منعزلاً وصغيراً جداً بحيث كان من الصعب على أكثر من اثنين أن يوجدا فيه معاً، ومن فوهة الغار، كان يمكن رؤية الكعبة البعيدة في الأسفل، على مسافة أبعد، كان السهل القاحل يمتد على مرمى النظر.

كان محمد ﷺ يبحث عن السلام ومعنى الحياة، بعيداً عن الناس ولم يكن يشارك قبائل المنطقة في معتقداتها وطقوسها، وظل مترفعاً عن

الخرافة والأحكام المسبقة، كان في منأى عن الآلهة الزائفة، أكان ذلك في تقديس التماثيل أو عبادة السلطة والثروة، وكان قد سبق له أن قال لزوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ عن بعض الأحلام التي كانت تتحقق وكانت تزعجه بسبب الانطباع القوي الذي كانت تخلّفه عندما يستيقظ، لقد كان ذلك حقاً سعياً وراء الحقيقة: وبما أنه لم يكن يقتنع بالإجابات التي كان يقدمها من حوله، وانطلاقاً من اليقين الكامن في نفسه بوجوب إجراء المزيد من البحث، فقد قرر الانعزال بنفسه والتفرغ للتأمل، كان يقارب سن الأربعين وبلغ في تطوره الروحي مرحلة جعلت الاستبطان العميق فيها الخطوة التالية اللازمة، كان يفكر ويتأمل وحده في غار حراء في معنى الحياة ووجوده على الأرض والعلامات التي اقترنت به طيلة حياته، ولا بد من أن المساحات الممتدة حوله كانت تذكره بآفاق طفولته في الصحراء، مع فارق الآن وهو أن النضج قد ملأها بآلاف الأسئلة الوجودية الأساسية.

كان منهمكاً بالبحث، وهذا السعي الروحي كان يقوده بالطبع إلى المهمة التي كانت العلامات تشير إليها بشكل صامت وحتمي طيلة هذه الحياة، فالعلامات التي كانت تحميه وتبعث الهدوء في نفسه، والرؤى التي كانت تظهر في أول الأمر في الأحلام ثم تتحقق في عالم اليقظة، والأسئلة التي كانت تدور في الذهن والقلب مقترنة بالآفاق التي تطرحها الطبيعة، كانت كلها تقود محمداً ﷺ بشكل غير محسوس إلى الانخراط الأسمى في المعنى، إلى لقاء ربه، الله الواحد الأحد، ففي سن الأربعين كانت الدورة الأولى لحياته قد بلغت النهاية.

فقد حدث أنه عند اقترابه من غار حراء في شهر رمضان عام 610 أن سمع للمرة الأولى صوتاً يناديه ويحييه: «السلام عليك يا رسول الله!»[10].